بمناسبة ذكرى شوقي :

المرأة في شعر شوقي

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

شوقي قمة من القمم الشوامخ في تاريخ الأدب في العصر الحاضر ، فهو من شعراء الطليعة ، يضطرك بروعة بيانه وقوة عارضته واتساع أفق خياله وغزارة مادته ، وما تلمس في آياته الشعرية من جزالة وسهولة ، أن تضعه في مقدمة الصفوف

وهو أقوى دليل وأكبر برهان على ما وصل إليه الأدب المصري الحديث من نهضة وتقدم ، فقد جمع شوقي في شعره بين القديم والجديد في أسلوب بليغ يتمشى مع جزالة الأدب العربي القديم ، والتفكير العصري والذوق الحديث ، فتراه يعمد إلى الألفاظ اللغوية القديمة التي نسيها الناس وصاروا لا يستسيغونها ولا يقوون على سماعها لأنهم لا يعرفون معانيها فيبعثها في شعر يحيط فيه بما في الغرب من صور بديعة ومعان رائعة وخيالات رائعة واضحة ترضاها الحضارة الشرقية ويستسيغها الطبع الشرقي

فقد كان يعتبر أن البعث للألفاظ الدارسة وسيلة من وسائل التجديد ، وسبيلا من السبل التي تصل بين مدنية قديمة بائدة ومدنية حديثة طارقة ، يجب ألا تنقطع الصلة فيها بين السلف والخلف ، وقد كفل لهذه الألفاظ حياة جديدة بما أفاض عليها من ثوب شعري جميل جعلها تتسع لما ظنها الناس أنها لم تتسع له من الصور والأخيلة والمعاني

* * *

وشوقي كغيره من الشعراء طرق أبواب الشعر القديم ثم زاد عليها ما استجدت به الأيام من الاجتماعيات والحوادث التي عاصرها وما أحدثت في نفسه من آثار بالغة ، ومن هذه الحوادث البالغة الأهمية ، الضجة التي قامت حول تحرير المرأة وإعطائها نصيبا موفورا من الحرية التي حمل لواءها قاسم بك أمين

وقد شارك شوقي في هذه الدعوة بنصيب لا بأس به ، ولكنه كان كثيره من الشعراء والكتاب يخضع لقانون البيئة الاجتماعية الذي تفرضه على الألسنة فلا تنطق إلا بحذر ، وعلى الأقلام فلا تكتب إلا بمقدار ، وعلى الجوارح فلا تتحرك إلا في تلصص ، وعلى القلوب فلا تنبض إلا في خوف ووجل ، لأنهم كانوا يخشون أن يكون في شيء من هذا ما يثير سخط المحافظين الذين يعتبرون — في ذلك الوقت — السواد الأعظم الذي يسيطر على الجانب الخلق من الحياة المصرية فكان على شوقي بحكم هذه الاعتبارات ، ولأنه لا يريد أن يباعد بينه وبين محبيه أو ينفر منه القلوب التي أجلسته على عرش الإمارة ، وزانت جبينه بتاجها ، ألا يعرض لهذا الموضوع فيما ينشر على الناس إلا مترفعا متأنيا حذرا غاية الحذر

ويتخذ شعر شوقي عن المرأة صورتين . منفصلتين لا تقارب بينهما : أما الصورة الأولى فهي تقليده لمن سبقه من الشعراء ، إذ يفتتح قصائده بالنسيب الذي اعتاده الشعراء القدامى ، كما في قوله من قصيدته (لبنان)

السحر من سود العيون لثمته ... والبابلي بلحظهن سقيته
الفاتنات وما فتن رماية ... بمسدد بين الضلوع مبيته
الناعسات الموقظات على الهوى ... المغريات به وكنت سليته
القاتلات بعابث في جفنه ... نمل القرار معربد أصليته (١)

(١) الأصليت : السيف

النفوس التي تحلى هذه الجسوم الصغيرة ، وإنا لنأمل يوما أن يستطير شررها فتنقلب إلى براكين جياشة تنفجر فتنقض مضاجع أولئك المستعمرين الغاصبين الذين سببوا هذه النكبة ، وسيكون إنقاذ البلاد السليبة ما تقاسي الآباء على أيدي هؤلاء الأحداث الذين تفتحت أعينهم على ظلام النكبة فنشأت نيران الثأر في نفوسهم ورضعوها مع اللبن

دمشق — حسني كنعان

الشاهرات المذب أمثال القنا يحمى الطعين بنظرة ويميته
الناسجات على سواء سطوره سقما على منوالهن كسيته

ثم يقول فيها :

إن قلت تمثال الجمال منصبا قال الجمال براحتى مثلته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور قضبانا وأعرض نافرا حال من القيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى إلى أترابه وزعمتهن لبانتى فأغرته
فمشى إلى وليس أول جؤذر وقمت عليه حبائلى فقنصته

فى هذه الأبيات الأخيرة بين لنا شوقى طبيعة المرأة عندما يتقرب منها الرجل طالبا ودها فتتمنع وتظهر الإعراض والصد حتى إذا رأته ينظر إلى غيرها أو يحادث إحدى صويحباتها ثارت غيرتها ، وطامنت من كبريائها ، وحاولت هى التقرب منه حتى لا تظفر به غيرها

وشئ آخر يظهر لنا من هذه الأبيات ، وهو معرفة شوقى لمواطن الضعف عند حواء ، وكيف أنه يعرف متى يقبل عليها ومتى يعرض عنها

* * *

وفى سنة ١٩١٩ ثارت البلاد على مختلف طبقاتها تطالب باستقلالها ، وسافر الوفد المصرى لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام فى فرساى وهناك تلقى دعوة من لورد (ملنر) وزير المستعمرات الإنكليزية إذ ذاك ليتفق مع الوفد على مركز البلاد وتحديد علاقة إنجلترا بها . وتمخضت المحادثات عن مشروع قدمه لورد (ملنر) واتفق مع الوفد على عرضه على البلاد لأخذ رأيها فيه مع التزام الحيدة ، فانتدب الوفد أربعة من أعضائه للقيام بهذه المهمة ، وقد اختلف القوم فى صلاحية المشروع أو عدم صلاحيته

وقد شارك شوقى فى هذه الحركة وعبر عنها أصدق تعبير فى قصيدة طويلة بدأها بالنسيب فقال :

أتى عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه
ومن تثنى القيد عن بانه مرتجة الأرداف من كثبه
ظباؤه المتكسرات الظبا يشلين ذا اللب على لبه
بيض رقاق الحسن فى لمحة من ناعم الدر ومن رطبه

إلى قوله :

يا ظبية الرمل وقيت الهوى وإن سمت عيناك فى جلبه
ولا ذرفت الدمع يوما وإن أسرفت فى الدمع وفى سكبه
هذى الشواكى النجل صدن امرأ ملق الصبا أعزل من غربه (٢)
صياد آرام رماه الهوى بشادن لا برء من حبه (٣)
قد شاب فى أضلعه صاحب خلو من الشيب ومن خطبه
واه يجنبى خافق ، كلما قلت تناهى ، لج فى وثبه

فأنت ترى أنه بالرغم من أن الموضوع الذى نظم فيه القصيدة موضوع سياسى بحت ، إلا أنه سار على سنن من قبله من الشعراء الأقدمين ؛ فبدأ قصيدته بهذا النسيب العذب الجميل الذى يسيل رقة ويمتاز قوة فى التعبير ؛ بهذا النسيب مهد لموضوعه الذى نظم من أجله القصيدة فقال :

ما بال قومى اختلفوا بينهم فى مدحة المشروع أو ثلبه
كأنهم أسرى ، أحاديثهم فى لين القيد وفى صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى بالقيد واستكبر من سحبه

إلخ ...

* * *

وعندما أطلق سراح شباب الحركة الوطنية فى عهد وزارة سعد زغلول ، واحتفل شباب مصر بنجاة إخوانهم وإخراجهم من السجون ، شارك شوقى فى تكريمهم بقصيدة عامرة افتتحها بأبيات غزلية رقيقة هى :

بأبى وروحى الناعمات المغيدا الباسمات عن اليتيم نضيدا
الرائيات بكل أحور فاتر يذر الخلى من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجرا الناهلات سوالفا وخدودا
اللاعبات على النسيم غدائرا الراتعات مع النسيم قدودا
أقبلن فى ذهب الأصيل ووشيه ملء الغلائل لؤلؤا وفريدا
يحدجن بالحدق الحواسد دمية كظباء وجرة مقلتين وجيدا
حوت الجمال فلو ذهبت تزيدا فى الوهم حسنا ما استطعت فريدا

(٢) غرب الشباب : حدته ونشاطه
(٣) الآرام : جمع رئم وهو الظبى يخالطه البياض .. الغادن : والغانية

لو مر بالوادان طيف جمالها ... في الخلد خروا ركعا وسجودا

وما أشبه هذا البيت الأخير بقول كثير عزة حيث يقول :

رهبان مكة والذين عهدتهم ... يبكون من خوف العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خروا لعزة راكعين سجودا

في هذه القصائد يظهر تقليد شوقي لمن سبقه ، فهو يدفع بالمرأة دفعا في قصائده وفي مواقف يحسن أن تكون بعيدة عنها كل البعد ، إذ أن الغزل والتشبيب الذي يبدأ به قصائده لا يكون إلا في وقت تكون النفس هادئة تنعم بالطمأنينة والأنس ، ولكنك لا تملك نفسك من الإعجاب ببراعة الشاعر وافتنانه في الإتيان بروائع المعاني ونظم الألفاظ

* * *

أما غزله الخالص الذي قاله متغزلا فهو قصير قليل تظهر فيه الصناعة والتأثر في لفظه ومعناه بمن تقدمه من الشعراء . فإذا تصفحت باب النسيب في الجزء الثاني من الشوقيات فإنك لا تكاد تعثر على شعر تستطيع أن تقول عنه إنه غزل صادق قيل في محبوب أو تأثر فيه بهجر أو صد أو تمتع فيه بوصال وقرب . مما يجعلنا نعتقد أن الشاعر لم يصب بهذا الداء — داء الحب — ، لذلك تجد هذا النوع من شعره أكثر صناعة وتكلفا ، ولولا قوة الشاعر وبراعته لما وجدت في نفسك دافعا لقراءته . فاسمعه يقول وهو تقريبا أجود ما قاله في هذا الباب :

خدعوها بقولهم حسناء ... والغواني يغرهن الثناء
أراها تناست اسمي لما ... كثرت في غرامها الأسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم ... تك بيني وبينها أشياء
جاذبتني ثوبي العمى وقالت ... أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله في قلوب العذارى ... فالعذارى قلوبهن هواء

وقوله في قصيدة أخرى :

أداري العيون الفاترات السواجيا ... وأشكو إليها كيد إنسانها ليا
قتلن ومنين القتيل بألسن ... من السحر يبدلن المنايا أمانيا
وكلن بالألحاظ مرضى كليلة ... فكانت سهاما في القلوب مواضيا
حبيبتك ذات الخال والحب حالة ... إذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا
وأنك دنيا القلب مهما غدرته ... أتى لك محلوا من الوجد وافيا
صدودك فيه ليس يألوه جارحا ... ولفظك لا ينفك للجرح آسيا
وبين الهوى والعذل للقلب موقف ... كخالك بين السيف والنار ثاويا
وبين الغنى واليأس للصبر هزة ... كخصرك بين النهد والردف واهيا
وعرض لي قوم يقولون قد غوى ... عدمت عذولي فيك إن كنت غاويا
يرومون سلوانا لقلبي يريحه ... ومن لي بالسلوان أشربه غاليا
وما العشق إلا لذة ثم شقوة ... كما شق الخمور بالسكر صاحيا

على هذا النمط تجد شعره الذي يندرج تحت هذا الباب كله صناعة وتقليدا للسابقين

هذه هي الصورة الأولى التي ذكر فيها الشاعر المرأة ومنها ترى أن نصيبها من هذا القسم من شعره نصيب لا يساير روح العصر ولا يتمشى مع تطور الزمن ونهضة المرأة في الميدان الاجتماعي وما وصلت إليه

أما الصورة الثانية فهي التي سنقدمها إلى القراء في العدد القادم إن شاء الله

أسيوط — عبد الحميد عبد الحافظ

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر في الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة